قصّة قصيرة

العباءة الرمادية

أحمد الشيخ

جاء رجل رماديّ الشعر معفّر السحنة والثياب وحطَّ ثقله فوق المقعد المسند إلى جدار واجهة المقهى القديم في الميدان، وبين قدميه حطَّ حقيبة ملابسه التي توحي بالعسر ومشقّة السفر. كانت على سحنة الرجل تكشيرة شاردة وهو يتأمل حركة الناس، مشغولاً على ما يبدو بالبنايات التي تبدَّلت. وكان من الواضح أن المعالم الثابتة في ذاكرته قد زالت وتوارت إلى حد مذهل، لعلها تبدَّلت وتلوّنت في غفلة منه ومنهم بجديد طارئ لم يحسبوا حسابه. حتى مشاعر الارتياح التي ظن أنه سوف يشعرها في تلك المدينة لم تظهر بوادرها، ولم يكن هناك حتى نظرة ألفة بينه وبين الناس الذين يعبرون على عجل، كأنه كائن آخر غيره جاء إلى مدينة من كوكب آخر بعيد، ولم يكن يملك غير ذاكرته التي تتشبث بكل ما يؤكد له على الأقل بأنه وُلد وتربّى في منعطفات هذه المدينة، وأنه يسعى في طرقاتها ودروبها صبياً وشاباً، ولا بدّ أنه الآن يرى بنظرته، وإن كانت شاردة أو خاطفة، إن قد وجده أصدقاء قدامى أو أقارب تجري في عروقهم قطرات من دمه نفسه. ولقد فكر قبل أن يجيء أنهم سوف يخطفونه في أحضانهم قبل أن يتعرف هو عليهم مثلما كان يحدث في الزمن القديم.

أسبل عينيه وجرَّب أن يتأكد من صحو ذاكرته وقدرتها على رسم صورة للميدان كما كان في الزمن الفائت، غابت في ذاكرته أجزاء وتاهت أجزاء وتنازعت لافتات الدكاكين التي غيَّرت واجهاتها عدة مرَّات، فتح عينيه ودقق أكثر في وجوه العابرين ليتعرَّف على واحد منهم فلم يفلح، نظر بتركيز أكثر وتساءل بينه وبين نفسه إن كان الناس هنا قد أصابهم الداء نفسه مثل الخلق هناك، وهل ركبتهم الهموم نفسها وتباعدوا بسبب الزحام؟ وردّ على نفسه بنفسه بصوت خافت حزين:

ـ كنت أعرف، أعرف بالتأكيد أسماء من يعبرون هذا الميدان في معظم الأحوال.

كان يكابد خيبة الرجاء في مدينة سعى إليها ليصالحها فأنكرته ولوت بوزها وتدثرت برماد عاصفة طارئة جفَّفت في شرايين ناسها الدم وشاخت ملامحهم قبل الأوان. وتذكر أنه لم ينقطع عن زيارتها لأكثر من عامين وعاد ليراها وقد ركبها وكل ناسها الجن والعفاريت. فاجأه الساقي بوقفته والسؤال عن مطلبه فأفاق نصف إفاقة وتحيَّر مرتبكاً، لكن الساقي أسعفه واقترح:

ـ مشروب مثلج يطرد الشرد يا أستاذ؟

أومأ موافقاً، ربما لأنه اكتشف بالفعل أنه في حاجة ملحة إلى مشروب بارد يطفىء الأشواق ويرطب الجوف العطشان. لعله في تلك اللحظة كان يلوم نفسه لأنه جاء إلى مدينته القديمة التي أصبحت لا تخصه. قبل المجيء كان يلوم نفسه على التكاسل والإرجاء، كان مصلوباً بين نارين، الرغبة في التباعد والاقتراب من الولد، جرحه الموروث الذي تجسَّد بشراً سوياً، والذي بحسابات كل العقول لا ذنب له في التواجد بتلك الكيفية في سكة عمره الذي ما استراح فيه يوماً. هو أخ لأب فشل في إقناعه ولو مرة واحدة بفكرة، وكان دائماً ينظر إليه باستخفاف الأب القادر المالك الحرّ في أن يعيش بحسب هواه حتى في سن العجز:

ـ «أي شوق للخلفة يا رجل وأنت في هذه السن؟»

ـ «ألسنة الناس مناشير تنهش سيرتك وأنت في الخامسة والسبعين».

ـ «أحفادك في عمرها يا رجل».

لكن الرجل لاذ بصمت مكابر، وعلى عادته لم يعلق بأكثر من نظرة استياء. ربما لو زوَّد هو الجرعة لأهانه الرجل ووبخه وقالها على عادته عندما لا تعجبه الكلمات:

ـ الرد فيك خسارة.

لعله خاف أيامها من دخول معركة خاسرة أخرى فكف عن المحاولة وهرب بالسفر إلى تلك المدينة الكبيرة التي يعيش فيها بغير

اختياره، كان في حقيقة الأمر يفر من رؤية الطقوس التي دعاه الرجل ليشهدها، وكانوا هم هناك ينظرون وينتظرون بتشفّ واستهزاء كيف ينفذ الرجل العجوز غرضه ويحقق الفكرة التي كبرت في دماغه وشرع في التجهيز لتنفيذها، وكان هو يعرف أنه عندما يركب رأسه بإرادته الصلبة التي لا تلين فإنه لا يعرف التراجع أو يفكر فيه، عناداً أو رغبة أو تأكيداً لنفسه بأنه بالفعل مالك لوعيه، وأنه لن يتزحزح خطوة ـ مهما كانت الاعتراضات ـ عن حقه في تقدير أمر نفسه بنفسه.

* * *

حدّثوه مراراً في زياراتهم الخاطفة عن زواج الرجل الكبير من بنت نواعم، كان يتسمع ويهز رأسه ولا يجرؤ على التعليق بكلمة، وكأن الأمر لا يعنيه رغم إدراكه وإدراكهم أنه يعنيه، ربما كان يتشكك في أنهم يأتون إليه خصيصاً لتحريضه أو استفزازه ليقول كلاماً في حق الرجل الكبير، ربما يسبه أو يلعنه أو يشكك في قواه العقلية فيستديرون على أعقابهم ويردّدون الوشايات عن الابن الجاحد الذي أخطأ في حق أبيه، طمعاً أو جبناً أو رهبة من مواجهته، كانوا يثرثرون:

ـ البنت صغيرة كما تعرف وسيرتها على كل لسان.
ـ أبوك رغم كبر السن بصحته وقادر على الخلفة.
ـ لو أنجب منها فسيظل المولود معلقاً في رقبتك ليوم الدين.
ـ نفرض أنّه سوف يعجز عن الإنجاب؟
ـ لا تستبعد من بنت نواعم أي شيء، والشرع هو الشرع.
ـ سكوتك لا يفيد.

وعندما تكلم سألهم عن كيفية الخروج من المأزق وقد وقعت الفأس في الرأس، تبادلوا نظرات السخرية الممزوجة بالشماتة وهزّوا الأكتاف. ساعتها سأل نفسه عن جدوى التعبير عن سخطه بالشكاية، وربما تأكد لديه أنه ومنذ الآن وحيد في بؤرة الحدث ونتائجه، وأنه ليس هناك إمكانية للخروج أو الفرار، لم يكن هناك أمامه غير الانتظار.

* * *

بعد موت الرجل بساعة أعلنت بنت نواعم أنها حامل في شهرها الثاني، وفي مندرة العزاء تسابقوا في التشكيك في دعواها وهو ساكت سكوت فريسة في قبضة فخ من صلب لا يرحم. وعندما حدّث امرأته في الأمر قالت إن في الأمر لعبة مدبَّرة، وفسّر هو الأمر على أنه مجرد حسابات محسوبة أو غيرة نسائية من بنت نواعم التي تفوقها جمالاً وشباباً وجرأة، لكنه مال إلى تصديق ما قالت به بعد سبعة أشهر من تلك الليلة إذ جاءته الأخبار بأن بنت نواعم وضعت بالفعل طفلاً، وأنها هددت باللجوء إلى المحاكم ضده ما لم يتنازل عن ميراثه للطفل مقابل أعباء التربية، وبحساباته كان التنازل أهون من دخول المحاكم وأحكام النفقة التي تخصم من المرتب بحسب الشرع والقانون. أصبح الميراث في حوزتها باختياره، وما تبقّى له من الأب غير طفل رآه ملفوفاً ومحمولاً على كتفها مرة، وكم كان يرغب على نحو غامض في رؤيته، مجرد رؤيته أو تحسس بدنه لكي يحكم بحسه الخالص إن كان بالفعل من نفس السلالة أو أنه كما يشاع ابن حرام طالع من حيث لا يعرفون ليغتصب حقوقه في الزمن الضائع.

* * *

حطّ الساقي زجاجة المياه الغازية الباردة أمامه فأعاده إلى المقهى والناس والصخب المباغت. كان سطح الزجاجة مغطى بذرات المياه الدقيقة التي تكثفت بفعل الرطوبة وبرودة السطح، لعله تذكر عطشه الشديد وهو يتحسس سطحها بأطراف أنامله في لهفة المشتاق إلى مجرد الاطمئنان إلى جرعة باردة في حوزته، لكنه رآه ماثلاً أمامه بوجهه الرمادي وجلبابه الرمادي وعباءته الرمادية وعلى رأسه الطربوش. كان الرجل الرمادي ينظر إليه بعينيه الرماديتين، وهو ينكمش داخل نفسه وينكمش، مذهولاً ومرعوباً ومكتوم الأنفاس من الهول الماثل أمامه، ليس فقط لأنه نفس الأب الذي مات منذ سنوات وقد عاد الآن ووقف قبالته، وإنما أيضاً لأنه عاد على نحو مغاير لصورته في سنواته الأخيرة.

كان الرجل الرمادي قد استعاد شبابه القديم وحيويته القديمة وشاربه الهتلري وقسوة تقاطيعه القادرة. أزاح الأب بيده كف الابن المفرود عن الزجاجة وأخذها. احتواها بين أنامله الغليظة ثم رفعها ناحية فمه وابتلعها في جرعة واحدة تماماً مثلما كان يَفْعَل في الزمن القديم، وبدا له وهو يضع الزجاجة الفارغة أمامه أنه يلومه ويوبخه ويتوعده بالعقاب الشديد عن خطأ لا بد أنه اقترفه وهو غافل عن نفسه. كانت أصابع يده المفرودة تلتف حول الزجاجة الفارغة، وربما كانت ترتجف ارتجافة محسوسة من رعب رؤية الأب الذي يبتسم باستهانة، نفس الابتسامة القديمة التي ترف على طرف شفتيه من ناحية اليمين قبل أن يستدير ويمشي مبتعداً وسط زحمة الميدان. وكان هو يتابعه بنظرة مشدوهة وهو يتباعد ويغطس في الطرف الآخر من الميدان ولا يظهر منه غير طربوشه القديم بينما تتداخل العباءة الرمادية في دوامات التراب المتناثر التي تعلو وتهبط على رؤوس الخلق. وكان حلقه أكثر جفافاً من كل الأوقات السابقة، ويده القابضة على الزجاجة الفارغة باستماتة وعجز تستشعر سخونة طارئة لها لسعة الجمر.

القاهرة